﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾

هذا ما شاهدته قريش فى رحلات الشتاء والصيف . رأوا آثار عاد قوم هود وبقايا ثمود قوم صالح . وكانت إمكانات عاد وثمود أكبر من إمكانات قريش . إن قريشاً لا سيادة لها إلا بسبب وجود الكعبة ، ولو كان الحق ترك أبرهة يهدم الكعبة لما مكن لهم فى الأرض . ها هى ذى حضارات قد سبقت وأبادها الحق سبحانه وتعالى ، ويوضح القرآن ذلك :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الفجر)

إنها حضارات كبيرة لها صيت وخبر فى آذان الدنيا مثل حضارة الفراعنة . وكل ذلك الصولجان لا يحميه أحد من أمر الله . وزالت الحضارات وأصبحت أثراً بعد عين ، وصدق عليها قول الحق :

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

والحق يجازى كل كافر الجزاء الوافى ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر قومه بما حدث لغيرهم من أقوام آخرين « أو لم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن » ، والقرن عادة هو الجيل الذى يحكمه زمن محدود أو حال محدود ، فإن نظرنا إلى الزمن فالقرن مائة سنة كأقصى ما يمكن ، والجيل الذى يعيش هذا القدر يرى حفيده وقد صار رجلاً . ونعلم أن نوحاً عليه السلام عاش تسعمائة وخمسين سنة ، يقول سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾

(من الآية ١٤ سورة العنكبوت)

وحياة نوح على طولها تسمى قرناً . إذن فالقرن هو جيل يجمعه ضابط إما زمنى وإما معنوى ، والقرن الزمنى مدته مائة سنة ، أما القرن المعنوى فقد يكون عمر رسالة أو مُلْك .

ويخبر الحق أهل الكفر بأنه قد قدر على غيرهم وأبادهم بعد أن مكن لهم فى الأرض وذلك بألوان مختلفة من أنواع التمكين : « وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين » ، وهذا الخبر يأتى من السماء بما حدث لقوم سابقين مثل قوم سبأ ، فقد قال عنهم الحق فى موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة سبأ)

ومسكن سبأ باليمن آية دالة على قدرة الله ؛ حديقتان وارفتان عن يمين وشمال ؛ ليأكل أهل سبأ من رزق الله ويشكروا نعمة الله . وكان لهم سد مأرب ، ووهبهم الله القدرة لبنائه ، فقطعوا من الجبال التى ليس لهم عمل فيها ليحجزوا ماء المطر الساقط من السماء ، كل شىء إذن فعلوه وإنما فعلوه لأن الله قد أراده ، وهم أعرضوا عن أمرين : عن الرزق الوفير الذى منحهم الله إياه وأرادوا أن يعتمدوا على أنفسهم كما فعل قارون حيث قال : (إنما أوتيته على علم عندى) . ظنوا أنهم قادرون على رزق أنفسهم وكذلك لم يشكروا الله ، ولذلك أرسل الله عليهم سيل العرم ، أى أنه عقاب من جنس العمل ، وهكذا تكون عاقبة الإعراض والكفر بنعم الله . فقد

سلط الله عليهم حيوانا من أضعف الحيوانات وأحقرها وهو الفأر فنقب السد فأغرق أموالهم ودفن بيوتهم .

ويخبر الحق رسوله بكل هذه الأخبار ليلفت بها وينبه إليها مومًا رأوا آثار حضارة عاد وثمود ، والرؤية سيدة الأدلة ، وطالبهم الرسول بها حتى يـ رفوا عاقبة الإعراض والتكذيب والاستهزاء ، ولم يطلب الحق من رسوله إلا البلاغ فقط ، أما إيمان القوم فليس مكلفاً به صلى الله عليه وسلم ، إن هؤلاء قد خافوا من سيطرة « لا إله إلا الله » فهم الذين صنعوا من أنفسهم آلهة وتسلط بعضهم على بعض . فتخيل القوى أنه إله على الضعيف . وتخيل الغنى أنه إله على الفقير ، وتخيل العالم أنه إله على الجاهل ، أما « لا إله إلا الله » فهى تساوى بين الناس جميعاً ، وهم يرفضون ذلك لأنهم يريدون السيادة .. ومثال ذلك قولهم :

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

فهم لم يجرؤوا على الطعن فى القرآن ، إنما طلبوا أن تكون السيادة لغنى من أغنياء القريتين مكة أو الطائف . وتناقض هذا القول مع عملهم وسلوكهم مع الرسول ، فقط حفظوا كل نفيس حرصوا عليه عند محمد صلى الله عليه وسلم . ولو كان الواحد منهم يرى شيئاً أو مغمزًا فى أمانة رسول الله لما فعلوا ذلك . ولكن الواحد منهم بالرغم من التكذيب بمحمد لم يكن يأتمن إلا رسول الله صلى الله عنيه وسلم ، فالإنسان حينما تقع مصلحته أمام تكذيبه فهو يغلب مصلحته على تكذيبه .

ويبين الحق سبحانه أن إعراض هؤلاء ، وتكذيب هؤلاء واستهزاء هؤلاء ، لا يمت إلى حقيقة أمرك يا رسول الله ، ولا إلى حقيقة القرآن فى شىء ، وإنما هو العناد ، مثلهم مثل آل فرعون الذين جحدوا آيات الله على الرغم من أن أعماقهم رأت هذه الآيات بيقين لا تكذيب فيه .

﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة النمل)

فقد أنكر قوم فرعون رسالة موسى عليه السلام مع أنهم تأكدوا من صدقها ، ولكنهم أنكروها بالاستكبار والعلو والظلم ، فكانت عاقبتهم من أسوأ العواقب ، وهذا هو حال المنكرين دائماً لآيات الله .

وهاهم أولاء منكرون جدد لرسالة رسول الله . يقول الحق سبحانه وتعالى فيهم :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾

هذا الكتاب ـ القرآن ـ لو نزل إلى هؤلاء المكذبين مكتوباً فى ورق من المحس المشاهد فلمسوه بأيديهم لقالوا ما قاله كل مكذب ، إنه سحر ظاهر . وقد طالب المكذبون الرسول صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم كتاباً من السماء ليقرأوه كشرط من ضمن شروط أخرى قال عنها الحق مصوراً جحودهم :

﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾ .

(سورة الإسراء)

فبعد أن وضح لهم إعجاز القرآن حاولوا زوراً ، واقترحوا من الآيات ليؤمنوا ، كأن يفجر لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ينبوعاً فى أرض مكة لا ينقطع ماؤه ، أو يكون لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بستان من نخيل وعنب . تتخلله الأنهار ، أو أن يدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تُنزل السماء عليهم قطعاً كعذاب شديد ، أو أن يتجسد لهم الله والملائكة ليروهم رأى العين ، أو أن يكون

لرسول الله بيت من ذهب مزخرف ، أو أن يصعد إلى السماء ويأتيهم بكتاب من الله يقرر صدق رسالته ، ولكن الله برحمته واتساع حنانه ينزه ذاته أن يتحكم فيه أحد أو أن يشاركه فى قدرته فيعلن لهم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم قوله - سبحانه وتعالى - :

﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾

(من الآية ٩٣ سورة الإسراء)

لأن الذى يبعث الآيات هو رب العالمين ، ولا أحد يجرؤ أن يفرض على الله آياته . ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو مُستقْبِل لآيات الله لا مقترح للآيات ، ذلك أنه صلى الله عليه وسلم يعلم أن من يقترح على الله آية ثم تأتى فيكذب بها يصيبه ويناله الهلاك ، هذه سنة الله ، ورسول الله يعلم أنه النبى الخاتم ؛ لذلك لن يطلب أى آية من الله حتى لا ينزل عقاب الله من بعدها إن كذبوا بها . ويبلغ الحق رسوله عتو المتجبرين المنكرين واستكبارهم .

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ ﴾

(سورة الأنعام)

الحق يعلم أن قلوب بعض المنكرين قد صارت غفلاً لا يدخلها الإيمان ولا يخرج منها الباطل - كما أراد هو لهم - فلو نزَّل إليهم كتاباً فى قرطاس ليكون فى مجال رؤية العين ولمسوه بأيديهم فلن يؤمنوا . ويأتى أمر لمس الكتاب بالأيدى ؛ لأن اللمس هو الحاسة التى يشترك فيها الجميع حتى الأعمى منهم ، وبرغم ذلك فسيكذبون قائلين : « إن هذا إلا سحر مبين » ومثل هذا الرد لا ينبع عن عقل أو تدبر أو حكمة . ولا يتناسب مع القوم الذين عُرفوا بالبلاغة والفصاحة ، وبحسن القول وصياغته ؛ لأن السحر إنما يغير من رؤية الناس للواقع ، ومادام رسول الله صلى الله عليه وسلم متهماً بالسحر منهم فلماذا لم يسحرهم هم ، ولماذا استعصوا هم بالذات على السحر ؟ والمسحور ليس له عمل ولا إرادة مع الساحر ، ولو كان محمد صلى الله عليه وسلم ساحراً لصنع من السحر ما يجعلهم يؤمنون .

إن من العجيب وهم أبصر الناس بفن القول ، وهم أهل النبوغ فى الأداء ،

ويعرفون القول الفصل والرأى الصحيح ويميزون بين فنون القول : خطابةً ، وكتابةً ، ونثراً ، وشعراً ، والقول المسجوع ، والقول المرسل ، من العجيب أنهم يقفون أمام معجزة القرآن مبهوتين لا يعرفون من أمرهم رشداً ، فمرة يقولون : إنه سحر ، ومرة يقولون : إنه كلام كهنة ، وثالثة يقولون : إنه كلام مجنون .

والقرآن ليس بسحر ، لأنه يملك من البيان ما يملكون وفوق ما يملكون ويحسنون ، ولايفعل رسول الله معهم ما يجعلهم يؤمنون على الرغم منهم، وليس القرآن كذلك بكلام كهنة ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نشأ بينهم ويعلمون أنه الصادق الأمين الذى لم يتلق علماً من أحد ، فضلا عن أن كلام الكهان له سمت خاص وسجع معروف ، والقرآن ليس كذلك . ويعلمون أنه كلام رجل عاقل ، فكلام المجنون لا ينسجم مع بعضه ، وهاهوذا الحق يقول فى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾

(سورة القلم)

وقد أعد الله رسوله ليستقبل النبوة بقوة العقل ، لا بسفه الرأى ، وله فى إبلاغ رسالة ربه ثوابٌ لا مقطوع ولا ممنوع ، وهو على الخلق العظيم . والخُلُقُ العظيم ـ كما نعلم ـ هو استقبال الأحداث بملكات متساوية وليست متعارضة ولا يملك ذلك إلا عاقل . وقد شهدوا هم بخُلُق محمد صلى الله عليه وسلم ، فكيف يأتى هذا الخلق العظيم من مجنون ؟ وكيف يصدر السلوك المتصف بالسلامة والصلاح والخير من مجنون ؟ كانت ـ إذن ـ كل اتهاماتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم تنبع من إصرارهم على الكفر ، لا من واقع لمسوه ، فكل ما قالوه فى رسول الله هم أول الناس الذين شهدوا عكسه ولمسوا نقيضه .

وجاءوا ـ إصراراً على الكفر ـ يطلبون آية أخرى :

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ ﴾

ما الملَك ؟ الملَك جنس جعله الله من الغيب ، ونحن لا نؤمن به إلا لأن الله الذى آمنا به قال : إن له ملائكة مثلما قال : إن هناك جناً ، والملائكة من جنس الغيب ، والجن مستور عنا . وهؤلاء المنكرون الجاحدون يطلبون نزول مَلَك حتى يؤمنوا . إذن فهم قد عرفوا أن هناك غيباً وأن فطرتهم الأولى تحمل أثراً من منطق السماء لكنهم ينكرون ، وقولهم بالملَك دليل على أن فى أعماقهم رواسب من دين إبراهيم ودين إسماعيل ، وبقيت تلك الآثار فى النفوس لأنها مسألة لا تمس السيادة ، ولو أنزل الحق لهم ملَكاً لما آمنوا أيضاً ، فهم مكذبون . ولا يريد الحق أن يطبق عليهم سنته بنزول الآية التى يطلبونها حتى لا ينزل بهم عقابه إن كفروا بها . فلو أنزل الحق عليهم ملَكاً كما يطلبون ثم كفروا لقضى الأمر وأهلكوا بدون إمهال . إذ لو تجلى الملَك لهم وظهر على طبيعته ما تحملته كياناتهم البشرية .

ولقد نزل الملَكُ بآثاره الدامغة وهو غيب أنزله ـ سبحانه وتعالى ـ بالوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفعل فى رسول الله ما فعل ، ولم يظهر من عمله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أثره فحسب . وهاهوذا رسول الله يشرح لنا ذلك لحظة مجىء الملك أول مرة فى غار حراء :

قال الملك : اقرأ .

(فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد . ثم أرسلنى ، فقال : (اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) . ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته يرجف فؤاده ودخل على زوجه السيدة خديجة بنت خويلد ، فقال : (زملونى زملونى) . فزملوه حتى ذهب عنه الروع . وأخبرها الخبر وقال : « لقد خشيت على نفسى » فقالت خديجة ـ رضى الله عنها ـ وهى تعدد صفات وخلق رسول الله العظيمة : « كلا والله لا يخزيك الله أبداً ؛ إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكَلّ ، وتكسب المعدوم وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الدهر »[1] .

---

(١) رواه البخارى .

هكذا كان الإيمان الأول من خديجة من فور أن عرفت خبر الوحى . ويطمئن الحق رسوله من بعد ذلك قائلاً :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ① وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ② الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ③ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ④ ﴾

(سورة الشرح)

وشرح الله صدر رسوله فصار هذا الصدر مهبط الأسرار والعلم وحط عن ظهر الرسول الكريم الأعباء الثقال ، وارتبط اسم الرسول صلى الله عليه وسلم بأصل الإيمان والعقيدة حتى صار اسم رسول الله مقروناً باسمه - جل شأنه - فى الشهادة الأولى للإسلام « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله » .

إذن كان هذا حال رسول الله حين تجلّى له المَلَك لا بالحقيقة الملكية ، ذلك أن هناك فارقاً بين البنيان البشرى والبنيان الملكى . فالبنيان البشرى يستقبل الأشياء المادية التى تناسب تكوينه ، فإن جاءت له طاقة أعلى منه فلا يمكنه أن يستقبلها إلا إذا أعد الله المَلَك وصوّره بصورة تجعله قابلاً للإرسال ، وأعد الله الرسول ليكون قابلاً للاستقبال . ونعلم جميعاً قصة موسى لما جاء لميقات ربه ، وقال الله فى وصف ذلك اللقاء :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ١٤٣ ﴾

(سورة الأعراف)

والمانع لرؤية الله هو عدم قدرة الإنسان على الإحاطة البصرية بالله ، فعندما تجلى الله للجبل المتماسك الصلب صار الجبل دكاً ، أى مفتتاً وخر موسى عليه السلام مصعوقاً من هول ما رأى ، ولما أفاق تاب إلى الله وأعلن أنه أول المؤمنين به سبحانه . فإذا كان الإنسان قد صعق من تجلى الحق للجبل ، فكيف يقدر على أن يتجلى الحق له ؟

إننا نعلم أن كل تكوين له قدرة استقبال لما يناسبه من أشياء، وضربنا لذلك مثلاً من دنيانا العلمية ـ ولله المثل الأعلى دائماً وهو منزه عن كل مثال ـ نجد الإنسان منا عندما يدخل الكهرباء إلى بيته لرغبته فى الانتفاع بقانون النور والضوء لمدة أطول وبفوائد الكهرباء المتعددة، ولكنه عندما يريد أن ينام فهو يطلب الانتفاع بقانون الظلمة، فيطفىء المصابيح، ويضع مصباحاً صغيراً لا يتحمل أن يأخذ الطاقة مباشرة من الكهرباء من مصدرها القوى ؛ لذلك يأتى الإنسان بمحول للطاقة فيستقبل المحول طاقة الكهرباء العالية من مصدرها ويخفضها بصورة تناسب المصباح الصغير . وهكذا نحتفظ بضوء ضعيف فى الليل لنستفيد من قانون الظلمة لننام .

وقد امتن الحق علينا أنه خلق النور وخلق الظلام، وكل منهما له مهمة . فإذا كان خَلْقُ النور والضوء والكهرباء قد أتاح للإنسان بناء حضارة، فالظلام أتاح للإنسان أن يرتاح وتسكن نفسه فيقوم ممتلئاً بالنشاط والحيوية . وإذا كنا نحتفظ فى الليل ببصيص نور لا يزعج، فنحن نفعل ذلك حتى لا نحطم الأشياء أو نصطدم بها إذا ما قمنا فى الليل لقضاء حاجة.

وكذلك الإنسان . . إنه لا يستطيع بضعفه أن يأخذ عن الله مباشرة . . ومن رحمة الحق بالخلق أن جعل بينه وبين الخلق وسائط، يتلقى المَلَك عن الله ، والملك وسيط، والمَلك ينقل إلى الرسول المصطفى، والرسول المصطفى وسيط، ومن تغفيل أهل الكفر أنهم طالبوا بإنزال ملك رسول . ويرد الله عليهم فى موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا (٩٥) ﴾

[سورة الإسراء]

لقد طالبوا ـ جهلاً ـ أن ينزل إليهم ملك رسول بالهدى، ويأمر الحق رسوله أن يرد عليهم بأنه لو كان بين البشر ملائكة . . أى لو كان هناك ملائكة يمشون فى الأرض لنزل إليهم الملك كرسول . ولما كان هذا غير حاصل، فقد أرسل الحق

رسولاً من البشر ؛ لأن المفروض أن يُبلغ الرسول وأن يكون كذلك أسوة سلوكية للمنهج ، بأن يطبق المنهج على نفسه ، فلو نزل ملك كرسول وطبق المنهج على نفسه لقال له البشر : إنك مَلَك تقدر على ما لا نقدر عليه وأنت لا تصلح أسوة لنا ؛ لذلك كان لا بد أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم أنفسهم حتى يكون أسوة لهم وقدوة .

إن هذا هو ما يبطل الادعاء بألوهية عيسى عليه السلام أو بنوته لله ؛ لأن عيسى عليه السلام طالبهم أن يفعلوا مثله . وأراد الحق ببشرية الرسل أن يؤكد القدوة والأسوة في الرسل ، ولذلك قال : « ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر » ؛ لأن البشر لا يستطيعون استقبال إشعاعات وإشراقات المَلَك لأنهم غير معدِّين لاستقبال تلك الإشعاعات والإشراقات . ولذلك يقول الحق :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩ ﴾

إذن فلو أراد الله أن يبعث رسولاً من الملائكة لجعله على هيئة البشر لعدم استطاعتهم معاينة المَلَك على صورته الأصلية ، وقد يهلكون عند رؤيته (وللبسنا عليهم ما يلبسون) أي ولخلطنا عليهم بتمثيله رجلا ما يخلطون هم على أنفسهم فإنهم سيقولون - حينئذ - إنما أنت بشر ولست بملك ، وقد أنزل الله المَلَك على صورة البشر كما حدث مع خليل الله إبراهيم عليه السلام يقول تعالى :

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۝٥١ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٥٣ ﴾

(سورة الحجر)

لقد أنزل الله الضيف من الملائكة على إبراهيم عليه السلام فخاف منهم بعد أن قرّب العجل ورآهم لا يأكلون إلى أن قالوا له ما يطمئنه من خبر ببشارة من الله ، بأن

يولد له الغلام إسحاق من زوجته « سارة » بعد أن رزقه الله من قبل إسماعيل من « هاجر » .

وكذلك أنزل الحق إلى مريم البتول مَلَكاً وتمثل لها بشراً سوياً لينبئها بحملها بعيسى عليه السلام . إذن فالمَلَك يتجسد فى صورة بشرية عندما يرسله الله فى مهمة إلى البشر ، لأن الملك لا يأتى إلى البشر على حقيقته . ومن امتنان الله على رسوله أنه أعطى له الفرصة ليرى جبريل على حقيقته مرة عند سدرة المنتهى، ومرة حين تجسد له على هيئة دحية الكلبى ومرة فى صفة رجل مسافر جاء يسأل الرسول عن الإسلام والإيمان، وحدثنا عنه عبد الله بن عمر قائلاً :

(حدثني أبى عمر بن الخطاب قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه . قال : يا محمد، أخبرنى عن الإسلام ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً . قال : صدقت . قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه . قال : فأخبرنى عن الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : صدقت . قال : فأخبرنى عن الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال : فأخبرنى عن الساعة ؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل . قال : فأخبرنى عن أماراتها ؟ قال : أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان . قال : ثم انطلق فلبثت ملياً ثم قال لى : يا عمر أتدرى من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم)[1] .

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الإيمان ، وهذا الحديث من الأحاديث التى تفرّد بها مسلم عن البخارى ورواه ابن حبان فى صحيحه وخرّجا فى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً بارزاً للناس ، فأتاه رجل فقال : ما الإيمان ؟ فقال : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث الآخر ...» الخ ورواه أحمد فى مسنده ، ورواه الترمذى وفيه أنه بدأ بالسؤال عن الإيمان .

إذن ، فنحن ببشريتنا لا نستطيع رؤية المَلَك إلا بعد أن يجسده الله بشراً . ولذلك قال الحق : « ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون » إذن فاللبس موجود بدليل أن الله أرسل الملائكة فى صورة بشر لإبراهيم عليه السلام ومريم ابنة عمران ومحمد صلى الله عليه وسلم وهو جالس بين قومه .

ويسلى الحق سبحانه وتعالى رسوله من بعد ذلك قائلاً :

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

هنا يخبر الله رسوله أن أهل الكفر كثيراً ما سخروا من قبلُ بالرسل السابقين وأخزاهم الله بالعذاب الذى أنذر به أهل التكذيب للرسل ، فالذين يسخرون بخبر السماء يحيطهم سبحانه بالعذاب جزاء لما كانوا يستهزئون .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾

نعلم أن الحق لم يقل أبداً : سيروا على الأرض ؛ لأن الأرض ظرف يسير فيه الإنسان ، والإنسان مظروف فى الأرض . وقد حدث هذا البلاغ من الله قبل أن نصل بالعلم إلى معرفة أن الأرض كروية ومعلقة فى الهواء ، والهواء يحيط بها ، وأن الهواء هو أقوات الإنسان بما فيه من أوكسجين وبما يغذى النبات من ثانى أوكسيد الكربون ، ونعلم أن الإنسان يصبر على الطعام لأسابيع ويصبر على الماء لأيام

ولا يصبر على انقطاع الهواء عنه للحظات . ولذلك لا يملك الله الهواء لأحد أبدا ، وهكذا عرفنا أن الهواء من جنس الأرض . وعندما يسير الإنسان فالهواء يحيطه ، وعلى ذلك فهو يسير فى الأرض . وهذا من الإعجاز الأدائى فى القرآن ونقرأ قوله الحق :

﴿ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النحل)

وهنا فى سورة الأنعام يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ما الفرق بين الاثنتين ؟ خصوصاً ونحن نعلم أن الفاء من حروف العطف وكذلك « ثم » هى أيضاً من حروف العطف وكلتاهما حرف يُفيد الترتيب ، ولكن الفارق أن الفاء تعنى الترتيب مع التعقيب أى من غير تراخٍ ومضى مدة . . مثل قولنا : جاء زيد فعمرو ، أى أن عَمْراً جاء من فور مجىء زيدٍ من غير مهلة . ولكن « ثم » تعنى طول المسافة الزمنية الفاصلة بين المعطوف والمعطوف عليه ، فعندما يقول الحق :

﴿ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النحل)

فكأن النظر والتدبر هو المراد من السير وبذلك يكون سيرَ الاعتبار .

ويقول الحق : « قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين » يعنى أن الإنسان قد يسير فى الأرض للتجارة أو الزراعة أو لأى عمل ، وعليه أن يتفكر فى أثناء ذلك وأن يتأمل . إذن فهناك سير للاعتبار وسير للمصلحة . والسير للاعتبار يعنى أن يأخذ الإنسان العبرة مباشرة ، أما السير للمصلحة فهو أن يأخذ الإنسان العبرة ضمن المصلحة . وكان سير قريش بقوافلها إلى الشام واليمن يجعلها قادرة على أن ترى آثار المكذبين سواء من أهل ثمود أو قوم عاد أو غيرهم . وكان عليهم أن يأخذوا العبرة فى أثناء سعيهم لتجارتهم .

ويقول الحق لرسوله صلى الله عليه وسلم من بعد ذلك :

﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

كأن الحق يعلِّم رسوله السؤال والجواب ؛ حتى يتعلم الناس من خلال ذلك أن كُلَّ المُلك لله ؛ لأنهم مهما بحثوا عن مالك للكون فلن يجدوا إلا الله ، حتى المكذبين منهم قال الحق عنهم :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

وعلى الرغم من شركهم بالله لا يقدرون إلا على الإقرار بأن الله هو خالق كل شيء ؛ لأن الإنسان قد يغتر بما لذاته من اختيار ، لكن عندما ينظر لما يقع على ذاته من اضطرار فهو يتعرف فوراً على الإيمان . وقد يختار الإنسان أشياء لكنَّ هناك أحداثاً تقع عليه لا اختيار له فيها وذلك لينبه الحق خلقه أنه فعال لما يريد وأنه يحكم هذا الكون وأن الاختيار ما كان إلَّا ليختبر الإنسان نفسه باتباع تكاليف الله .

والأحداث ثلاثة : حدث يقع عليك ، وحدث يقع فيك ، وحدث يقع منك . وما يقع عليك ليس لك فيه اختيار ، وما يقع فيك لا اختيار لك فيه ، ولا يبقى لك إلا ثلث الأحداث وهو ما يقع منك . وأنت محكوم في ذلك بقوسين لا اختيار لك فيهما : قوس الميلاد وقوس الموت ، إذن فالأمر كله لله .

ويطمئن الحق خلقه قائلاً : « كَتَبَ على نفسه الرحمة » وهو قول ليُطَمئِن به الحقُّ عبادَه حتى لا يظن الناس أن الله يعاقبهم دون حساب ؛ لأنه الحليم ذو الفضل وهو القائل :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة يونس)

ويعفو سبحانه عن الكثير ، وباب رحمته وفضله مفتوح ويفسح التوبة لكل عاص . ومن فضل الله أنه جعل بعضاً من الكفار يقفون فى بداية الإسلام ضد المسلمين ثم يكونون من بعد ذلك سيوفاً للإسلام ، وسبحانه الرحيم الذى يجمعنا للحساب يوم القيامة الذى لا ريب فيه ولا شك ، ونسير جميعاً مدفوعين إلى ذلك اليوم ويأتى الكافر على رغم أنفه ، والمؤمن يتيقن رحمة الله وفضله ويفرح بلقاء ربه .

والكافر - والعياذ بالله - قد خسر نفسه بعمله مصداقا لقوله الحق : « الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون » وخسران النفس مترتب على عدم الإيمان ؛ لأننا لو نظرنا إلى الغايات وإلى الوسائل لوجدنا أن الوسيلة تأتى قبل الغاية ، ولكن فى التحضير العملى الغاية تتضح قبل الوسيلة ؛ فالذى يستذكر إنما يستحضر فى ذهنه الغاية وهى النجاح ، فيبذل الجهد لينجح ؛ لأننا نعلم أن كل شرط هو واقع بين أمرين ، بين جواب دافع ، وجواب واقع ؛ فالنجاح دافع للمذاكرة ، والمذاكرة تجعل النجاح واقعاً ، ويقول ابن الرومى :

ألا مَنْ يُرِينى غايتى قَبْلَ مَذْهَبى
ومِنْ أين والغايات بعد المذاهبِ ؟

وهذا القول منه غير سديد ؛ لأن الإنسان عليه أن ينتبه إلى الغاية وأن يتعرف على الوسيلة التى توصله إلى الغاية ، فإذا كانت الغاية أن يذهب الإنسان إلى الله ، والوسيلة هى المنهج ، فلماذا الحيرة إذن ؟ وهكذا نعلم أن الذين لم يؤمنوا قد خسروا أنفسهم لأنهم لم يميزوا الغاية الدافعة وهى الذهاب إلى الله والنزول على حكمه ، عن الغاية الواقعة وهى الوسيلة ، وسبحانه قد يسرها لعباده إذ قد أتى لهم بالمنهج الذى يسيرون عليه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى من بعد ذلك :

﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾

إن من عظمة الموجود الأعلى الواجب الوجود أنه يتكلم عن نفسه بضمير الغيب وهو سبحانه القائل فى أول بعض الآيات : « قل هو الله » .

و« قل » هى أمر ، فكأن الحق حين يقول : « هو » فلا يمكن أن تطلق « هو » إلا على الله ولا تنصرف إلا لله . « وله ما سكن فى الليل والنهار » وكلمة « سكن » هى من مادة السين والكاف والنون ، وتأتى لمعان متعددة ؛ فتكون من السكنى أى الاستيطان ، وتكون من السكون الذى هو ضد الحركة . والمثال على الاستيطان هو قول الله لآدم :

﴿ اَسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة البقرة)

إن الحق سبحانه يقول هنا : « وله ما سكن فى الليل والنهار » فكأن الليل والنهار ظرف ، وكل الوجود مظروف فيه . وظرفية الليل والنهار تأتى على ظرفية المكان وهو الأرض . وكل مكان فى الأرض يأتى عليه الليل والنهار . فإن أردنا الاستيطان فى السكن فهى موجودة ، وإن أردناها من السكون ـ وهو ضد الحركة ـ فهى موجودة ؛ ذلك بأن كل متحرك يؤول إلى ساكن ، والإنسان سيد الحركة ثم يموت أو يسكن فى الأرض . وهكذا نرى أن الجنس الأعم الذى يشملهما معًا هو « ما سكن » ولذلك قال الحق :

﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وحينما يقول : « وله ما سكن فى الليل والنهار » ، فهو يتكلم عن الزمان ، واحتوائية الزمان للزمانيات ، أى للأشياء التى تحدث فى هذا الزمان . والإنسان كما نعلم حدث . وكل ما يطرأ عنه حدث ، وكل ما فى الكون حدث ، وقد أحدثه الحق الواجب الوجود .

ومادام الحدث قد وُجد فلا بد له من زمان ولا بد له من مكان . أما مكان الحدث فهو السماء والأرض ، وما بينهما . وأما زمان الحدث فهو الليل والنهار .

اذن فالحق قد تكلم عن خلق الزمان من بعد أن أعلن لنا أنه خالق المكان .

﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأنعام)

وهكذا نعلم أن الزمان والمكان قد وُجدا عندما شاء الله أن يحدث هذا الكون . ولا تقل أبداً أيها الإنسان : أين كان الله قبل أن يخلق الكون ؟ ؛ لأن « أين » هى بحث عن مكان ، و« متى » هى بحث عن زمان . و« أين » و« متى » إنما وجدتا بعد وجود الحدث فى الكون . والكون هو ظرف قار أى شىء ثابت . والزمان هو ظرف غير قار ، لأنه يكون مرة ماضياً ، ومرة يكون حاضراً أو مستقبلاً .

والحق سبحانه عندما قال : « وله ما سكن فى الليل والنهار » أى أن له الظرفين : القار وغير القار . . أى له ـ سبحانه ـ الساكن وكذلك له ما يتحرك فى الكون ؛ لأن كل متحرك يؤول أمره إلى سكون . أو أن قوله الحق : « وله ما سكن فى الليل والنهار » أى ما حل فى الليل والنهار ، أى له سبحانه ما حل فى الليل والنهار متحركاً كان أو ساكناً .

والحق يذيل هذه الآية بقوله : « وهو السميع العليم » فالسمع متعلق بالمسموع أى الذى له حركة ، والعلم متعلق بالمسموع والمنظور والمشموم وكل شىء من آلات الإدراك ؛ لذا جاء قوله ـ سبحانه ـ : (وهو السميع العليم) ليشمل المتحرك والساكن ، فسبحانه لا يعزب ولا يغيب عنه شىء .

ونعلم أنه إذا أخبر الحق عن نفسه بصفة من صفات يوجد مثلها فى البشر فنحن نأخذها فى إطار « ليس كمثله شىء » . فأنت أيها الإنسان لك سمع فيقال عنك : سميع . ولك علم فيقال : عليم . ولك بصر فيقال : مبصر . ولك قدرة فيقال : قادر . وقد تكون ذا مال وفير فيقال : غنى . ولك وجود فيقال : موجود . وأنت حى فيقال : حى .

لكن أهذه الصفات التى فيك هى عين الصفات التى فى الله ؟ لا ؛ لأن صفات الله إنما نأخذها فى إطار « ليس كمثله شىء » . ونحن نشاهد ذلك فى أنفسنا ؛ فالإنسان منا له حال حياة ، وحال موت . وفى حال الحياة له حالتان : حالة يقظة ، وحالة نوم . وفى حالة اليقظة نحن نرى بقانون البصر ، ولهذا البصر حدود ؛ فهو محكوم بقانون الضوء ، وكذلك السمع محكوم بقانون الصوت والموجة والذبذبة .

ومع ذلك فالإنسان ينام ويغمض عينيه ويرى رؤيا فيها ألوان حمراء وخضراء وغيرها ، فبأى شىء أدركت الألوان وعينك مغمضة ؟ إذن فمادام فى البشر رؤيا بدون عين فلا تقل عن رؤيا الله لنا إن له عيوناً مثل عيوننا ، بل هو يرى فى إطار « ليس كمثله شىء » . إنه سبحانه وتعالى قيوم يحكم عباده فى الزمان والمكان فى حالة يقظتهم وفى حالة نومهم .

ومثال من حياتنا اليومية ، نحن نجد الرجل وزوجه ينامان فى فراش واحد ، وقد يرى الرجل فى المنام أنه يواجه أعداءه ، وترى الزوجة نفسها محاطة بسعادة الأبناء والأحفاد ، ويستيقظ كل منهما ليحكى ما رأى فى أكثر من ساعة ، على الرغم من أن مخ الإنسان لا يعمل فى أثناء النوم إلا لسبع ثوان .

إذن ، ففى النوم تلغى المعية وكذلك الزمن ، والمكان . فإذا كانت تلك هى القوانين التى تحكم الإنسان ، فعلينا أن نعرف أن خالق كل القوانين وهو الحق لا يمكن إدراك صفاته ، وعلينا أن نأخذها فى إطار : « ليس كمثله شىء » .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

والهمزة هنا فى « أغير » يسمونها همزة الإنكار كقول قائل : أتسب أباك ؟ إنها ليست استفهاماً بقدر ما هى توبيخ ولوم . وكذلك : « أغير الله أتخذ ولياً » . أى أن الحق يأمر رسوله أن يستنكر اتخاذ ولى غير الله .

إن اتخاذ الله كولى هو أمر ضرورى ؛ لأن الإنسان تطرأ عليه أحداث تؤكد له أنه ضعيف وله أغيار ، وساعة ضعف الإنسان لا بد أن يأوى إلى من هو أشد منه قوة

ولا يتغير . إن الولى ـ وهو الله ـ قوته لا يمكن أن تصير ضعفاً ، وغناه لا يمكن أن ينقلب فقراً ، وعلمه لا يمكن أن يئول إلى جهل . إنه مُغيِّر ولا يتغير . ولذلك فمن نعمة الله على خلقه أنه جعل من نفسه ولياً لهم ، فهو صاحب الأغيار .

والحق سبحانه وتعالى يعلّم خلقه أن يكونوا أهل حكمة ؛ يضعون الأمور فى نصابها ويتوكلون عليه ، فهو الحى الذى لا يموت . ونلحظ أن الحق هنا يأمر رسوله بالبلاغ عنه . وتتجلى هنا دقة الأداء القرآنى فيأتى البلاغ كما نزّل من الحق حرفياً .

مثال ذلك قول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ (سورة الإخلاص)

ويبلغنا الرسول ﷺ بالنص القرآنى كما نزل عليه ، مبتدئاً بكلمة «قل» ويبلغه الرسول لنا بأمانة البلاغ عن ربه . وهو هنا يقول : «قل أغير الله أتخذ ولياً» . وهو الإله الذي جاءت كمالاته فى الآيات السابقة ؛ الذى خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور وله ما سكن فى الليل والنهار ، هذا الإله الحق هو الجدير بالعبادة .

ويريد الحق لرسوله أن يستخرج من الناس الإجابة ، لا أن يقول هو : لا أتخذ ولياً غير الله ، وسبحانه يأمر رسوله أن يسألهم : « قل أغير الله أتخذ ولياً » . وليكن السؤال مطروحاً منك يا رسول الله تبليغاً عن الله ، وتعطى لهم الحرية فى الإجابة ، وسيكون الجواب كما تريد .

وعندما يسمع الإنسان مثل هذا السؤال لا بد أن يسأل نفسه ويدير عقله كى يجد جواباً . ولن يجد الإنسان جواباً سوى أن يقول : ليس لى ولىٌّ غير الله ؛ فالولى هو القريب الذى ينصر الإنسان فى ضعفه ، وإن استصرخه جاء لينقذه .

ولا يستصرخ الإنسان أحداً إلا إذا انتابه حادث جلل ، فإذا ما جاء القوى ليغيث صاحب الصرخة فهو يطمئن إلى أن من جاءه سيعينه ويخلصه . واتخاذ الولى أمر فطرى فى الكون ، والأمر المنكر أن يجعل الإنسان لنفسه ولياً غير الله . ونحن ـ المؤمنين ـ يتخذ بعضنا بعضاً أولياء فى إطار الولاية لله مصداقاً لقوله الحق:

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾

(سورة التوبة)

ويتبادل المؤمنون والمؤمنات المحبة والنصرة طبقاً للتعاقد الإيمانى بينهم وبين الحق سبحانه وتعالى ، ويأمر بعضهم بعضاً بأوامر المنهج ، وينهى بعضهم بعضاً عن المحظورات التى حرمها الله ويتواصلون مع الحق بإقامة الصلاة . ويؤدون حق الله فى مالهم بالزكاة ، ويطيعون الله ويمتثلون أوامر رسوله ، وهم بذلك ينالون وعد الله الحق بالرحمة ، وهو سبحانه القادر على رعايتهم ، وهو حكيم فى صيانتهم ، عزيز لا يغلبه أحد .

إذن فأنت تطلب الولى لحظة الضعف ، ولحظة الشدة ، ولا يوجد إنسان استوت له كل زوايا الحياة فيصير قوياً لا يضعف أبداً ، أو يصير غنياً لا يفتقر أبداً . ونعلم أن الإنسان من الأغيار ، فلم نر قوياً ثبتت له قوته ، ولا غنياً ثبت له ثراؤه ؛ فالإنسان ابن الأغيار ، وتأتى له حالات فوق قدرته ؛ لذلك فهو يسأل عمن يعينه ويساعده . والمؤمن يجب أيضاً أن يكون قوياً ليساعد غيره ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قد وزع المواهب على خلقه فى الكون ليضمن بقاء الولاية واستمراريتها ، فأنت فى احتياج إلى عمل إنسان آخر ؛ لأنك ضعيف فى ناحية وغيرك قوى فيها ، الطبيب يحتاج إلى المهندس ، والمهندس يحتاج إلى الطبيب ، والطبيب والمهندس يحتاجان إلى الفلاح ، والفلاح يحتاج إلى عمل المهندس والطبيب ، والطبيب والمهندس والفلاح يحتاجون إلى عمل المحامى .

هكذا وزع الله المواهب فى الكون ، ولم يجعل من إنسان مجمعاً لكل المواهب . وذلك حتى يتساند المجتمع لا بالتفضل والتكرم بل بتساند الحاجة . فكل إنسان هو سيد فى زاوية ما من زوايا الحياة ، وبقية الزوايا يسودها غيره من البشر ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ

﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢)﴾

(من الآية ٣٢ سورة الزخرف)

هذا هو الإعلان من الله سبحانه وتعالى بأنه وزع المواهب بين البشر ليتساندوا ويُسخر بعضهم بعضاً في قضاء حوائج بعضهم بعضاً لتنتظم أمور الحياة . وفي هذا التقسيم رحمة من الحق بالخلق . فلو تساوى الناس في الذكاء ، وصاروا كلهم من العباقرة ، فمن هو الذي سيتولى أمور تنظيم الشوارع ؟ ومن الذي سيقوم بأعمال وصيانة المباني ورعاية وإطعام الحيوان والقيام على أمره ونحو ذلك من الأمور التي لا تنتظم الحياة إلا بها ؟

وكلنا يرى الرجل الذي ينزح آبار المجاري ويخرج في الصباح قائلاً : يا فتاح يا عليم ، يا رزاق يا كريم . ويطلب بئراً جديداً من المجاري لينزحه حتى يكسب قوت نفسه وعياله . وكل منا مضطر ومحتاج إلى غيره ، وهذا هو معنى :

﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ (من الآية ٣٢ سورة الزخرف)

إذن فاتخاذ الولي هو أمر فطري . والإيمان بالله يعطينا ذكاء اختيار الولي . فالإنسان المؤمن عليه أن يختار الولي الذي يجده عندما يحتاج إليه ؛ لذلك فعليه أن يختار ولاية الله ، ولا يختار ولاية الأغيار . فيسخر الله للمؤمن حتى عدوه ليخدمه . لذلك يبلغنا الحق على لسان رسوله : « قل أغير الله أتخذ ولياً » والذين ينكرون علينا أن نتخذ الله ولياً ويريدون أن نتخذ غيره يرون في أنفسهم المثل .. فقد يخيب رجاؤهم ، فالإنسان منهم قد يتخذ إنساناً مثله ولياً ، وساعة يحتاج إليه يجده مريضاً ، أو غائباً أو تغير قلبه عليه ، لكن المؤمن يختار الله وليه لأنه الذي لا يغيب ولا يتغير ، ولا يضعف . ولا ينكر القرآن أن يتخذ الإنسان له ولياً من البشر ، ولكن الحق يدلنا على أنه الولي الحق ، وأن المؤمن عليه أن يتخذ إخوته المؤمنين أولياء له ؛ لأنها ولاية من الله وفي الله .

وأنت أيها المسلم حين تختار الحق سبحانه وتعالى ولياً لك فهو الذي يُحضر لك كل زوايا المواهب ويعدُّها ويهيئها لتكون في خدمتك ؛ لأنه سبحانه وتعالى «فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم» وقد خلق الحق السموات والأرض على غير

مثال . وسبحانه قد أبدع هذا الكون دون نموذج مسبق . وحين أراد سيدنا عيسى عليه السلام أن يثبت لقومه معجزته جاء بالطين وجعله كهيئة الطير ، إذن فهناك مثال سبقه ووجده واتبعه. وعيسى إنسان من الخلق ، أما خالق كل الخلق فقد خلق السموات والأرض على غير مثال . وأنت أيها الإنسان قد لا تلتفت إلى مسألة خلق السموات والأرض لأنك تراهما كل لحظة بصورة رتيبة ، وقد تظن أنها مسألة سهلة ، ولكن الحق سبحانه يقول :

﴿ لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (سورة غافر)

وهو سبحانه يقسم أن خلق السموات والأرض مسألة أكبر وأدق من خلق الناس لكن أكثر الناس لا تعلم ذلك .

فسبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (سورة الذاريات)

وفي قوله (وإنا لموسعون) إشارة إلى خلق هذا الكون المرئى وغير المرئى ؛ لأن هناك الكثير من الأجرام والمجموعات الشمسية ، وما وراء ذلك من اتساع ذلك الكون ما لا يدركه العقل ولا يمكنه تحديده ، وهذه السعة المذهلة هى من قدرة الله سبحانه وتعالى . (وإنا لموسعون).

ونجد الحق يستخدم كلمة : « فاطر » مرة فى شيء مُصْلح ، وأخرى في شيء مفسد . والمثال للشيء المصلح هو ما يقوله الحق هنا : « فاطر السموات والأرض » أى أنه خالق السموات والأرض على غير مثال سابق وباقتدار محكم .

ويقول الحق سبحانه في موضع آخر :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾ ﴾ (سورة الانفطار)

أى أن الحق ينبه هنا إلى يوم الهول الأعظم الذى تنشق فيه السماء وتتساقط فيه

الكواكب فلا يؤدى أى شىء منها مهمته ؛ لأن الله ـ سبحانه ـ سلبها ما كانت به صالحة .

ويقول أيضاً :

﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ﴾ (سورة الملك)

فالحق لا يعجز عن شىء ، وهو الخالق لسبع سموات بإتقان بعضها فوق بعض ، فلا يرى الناظر أى خلل فى هذا الخلق ، وليُعد الإنسان النظر إلى السماء فلن يجد أى خلل من شقوق أو فروق .

و«فطور» هنا معناها شقوق . إذن فالحق ـ بتمام قدرته ـ يعطى الشىء من الصفات ما يجعله صالحاً لأداء ما خُلق له فلا يظنن ظان أنه خرج عن قدرة خالقه ـ سبحانه ـ وخلق السموات والأرض بتمام إبداع وإحكام ، وهو القادر على أن يفطرهما ويجعلهما غير صالحتين فى أى وقت شاء ، ومثلهما الشمس تُكوَّر ، والنجوم تُطْمَس ، والجبال تنسف .

وقال عالم من العلماء : ما فهمت كلمة « فاطر » إلا حين جاء أعرابى ، وقال: فلان ينازعنى فى بئر أنا فطرته ، أى أن الأعرابى هو الذى بدأ حفر البئر . إذن فاطر السموات والأرض . . أى الذى خلقهما على غير مثال . وسبحانه وتعالى القائل :

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (سورة الأنبياء)

وهذا القول الحكيم لم يصل إلى فهمه العميق من سبقونا ، لكن إنسان هذا العصر الذى نعيشه فهمها بعد أن توصل العلماء إلى أن السموات والأرض كانتا كتلة واحدة وفصلَهُما الحق بإرادته . وجعل من الماء حياة لكل كائن حى .

إذن هو سبحانه قادر على كل شىء ، ولا يخرج شىء عن نطاق قدرته . وهو

سبحـانه قبل أن يمتن علينا بخلق الحياة فـهو يحذرنا أن يأخذنا الغرور بهـذه الحياة ، ولذلك قال :

﴿ تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَـدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَـدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَـوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ (سورة الملك)

وكأنه ينبه الإنسان إلى أن يستقبل الحيـاة ، ليعرف أنه سبحانه أوجد ناقض الحياة وهو الموت ، فـإياك أن تأخذ الحيـاة على أنهـا تعطيك قوة الحـركة والإدراك والإرادة برتابة وأبدية ؛ لأن هناك ناقض الحياة وهو الموت .

وها هو ذا سبحانه يقول فى موضع آخر من القرآن الكريم:

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَـوْتَ وَمَـا نَحْنُ بِمَسْـبُوقِـينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (سورة الواقعة)

والإنسان لا يرى الحيـوانات المنوية المقذوفة منه فى رحم زوجـه ، ولا أحد يقدر على ذلك ويرعاه حـتى يصيـر جنيناً ثم بشراً ، ولكن الحق هو المقـدر والخالق ، إنّه القـادر الذى أعطانا الحيـاة وقدّر علينـا الموت ولا غالب له ، إنه يبـدل صورنا حـين يريد، ويخلق غيرنا وينـشئنا فى صور لا نعرفهـا ، وهو الواهب للحياة ، وهو الذى ينزعها بالموت .

ويقول لنا :

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

هنا ينبهنا جل وعـلا إلى أن الزرع الذى نأكله ، والثمار التى نجنيـها من الأرض ليس لنا فيها إلا إلقاء البذور ، وهو سبـحانه الذى أودع فى البذرة عجائب مُختزنة ، ففى البذرة ما يقـيتها إلى أن يوجد لها جذير يمتص غـذاءها من الأرض ، فتَنمو لها

ساق ، ثم تقوى الجذور ، وتشتد الساق . ولا عمل للإنسان إلا إلقاء البذرة وحرث الأرض . ومع ذلك احترم الحق عمل الإنسان فقال :

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

وعن الماء يقول الحق :

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾
لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

هذا الماء العذب الذي نشربه إنما أنزله الله من السحاب الممطر . وعملية الإمطار هذه غاية فى التعقيد . والماء السارى فى الأنهار إنما جاء من المطر الذى تم إنزاله من السماء . فقد أرسل الحق أشعة الشمس لتبخر الماء من البحار ، وتتجمع فى سحب ثم يجرى الله عليها أمره من مرور تيارات هواء باردة فتسقط مطرا .

ونحن عندما نقطّر كوب ماء فى معمل ، نأتى بموقد وإناء ووقود ، ونضع الماء المراد تقطيره فيتبخر ، ثم نكثف قطرات البخار بواسطة تيار من الهواء البارد . ومثل هذه العملية تكلفنا الكثير من العمل الذهنى والمادي لبناء مثل هذا الجهاز حتى نقطر كوباً من الماء ، فما بالنا بالمطر الذى ينزل مدراراً وسيولاً .

إننا نجد ثلاثة أرباع الكرة الأرضية من ماء ، إنه ـ سبحانه ـ بسطه على رقعة واسعة ، حتى يسهل البخر . وإذا ما نثرنا كوب ماء على سطح متسع فى أبرد مكان فلسوف يتبخر . وهذا الانتشار المسطح للمياه هو الذى يسهل عملية البخر .

ويصعد البخار من مياه المحيطات والبحر إلى أعالى الجو ثم يتكثف فى صورة قطرات صغيرة من الماء تتساقط كمطر يتفاوت من منطقة إلى أخرى . وسبحانه قد أعدّ لكل أمر عدته . وهو أيضاً القادر على أن يذهب صلاح هذا الماء .

ويقول لنا الحق :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ (٧٣) ﴾

(سورة الواقعة)

ويذكرنا هنا سبحانه بأنه الذى خلق النار التى نشعلها ، وقد جاء بالمصدر الأول للوقود ، وهى الأخشاب التي كانت أشجاراً خضراء وبعد ذلك جفت وصارت أخشاباً نوقدها ونشعل فيها النار . وفي كل ذلك تتجلّى لنا قدرة الحق سبحانه وتعالى، فنسبح باسمه العظيم :

﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤) ﴾

(سورة الواقعة)

وننزهه سبحانه وتعالى عن أن يكون له شريك في أمور الخلق والكون .

إذن فعندما يقول الحق سبحانه مبلغاً رسوله :

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤) ﴾

(من الآية ١٤ سورة الأنعام)

هذا السؤال يجبرنا على أن ندير أمر اختيار الولى فى رءوسنا وأن نُعْمِلَ أفكارنا ، وأن نعرف أن اتخاذ الولى أمر وارد على النفس البشرية ، ولكن من الذى يستحق أن نتخذه ولياً؟ ونجد فى تربية الحق لنا ما يعيننا على استنباط الفكرة السليمة والرأى الرشيد حين يقول لنا :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة الفرقان)

ونعلم أن الإنسان لو اتخذ ولياً من البشر فهذا البشر عرضة للموت ، فتحس أيها الإنسان أنك وحيد فى هذا الكون ، ولكنك عندما تتوكل على الله فهو حىّ لا يموت أبداً ، وهو سبحانه : «فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم» وهو الذى خلق السموات والأرض على غير مثال ، وهو الذى يطعمنا من مطمور كنوز الأرض التى أرادها قوتاً لنا . ولماذا جاء الحق هنا بمسألة الطعام ؟ إن الطعام لون من الرزق ،

والرزق ـ كما تعلم ـ رزق ينتفع به مباشرة ؛ ورزق يأتى لنا بما ننتفع به مباشرة . فلو أن إنساناً فى صحراء ومعه جبل من الذهب الخالص ولم يجد كوب ماء ولا رغيف خبز ، فجبل الذهب لا يساوى شيئاً .

إن جبل الذهب رزق ولكن لا ينتفع به مباشرة . والرزق الذى ننتفع به مباشرة هو الطعام والشراب والكسوة . ونحن نحتاج إلى الطعام والشراب كل يوم ، ونحتاج إلى ملابس جديدة مرة كل ستة أشهر فى المتوسط . إذن فالرزق المباشر هو المقوّم الأساسى للحياة .

والولى الذى ينصر لا بد أن تتوافر فيه القدرة على الإطعام الذى يمدنا بالقدرة التى هى أساس الحياة إنها طاقة استمرار الإنسان على الأرض . فالأم تطعم طفلها وهى تَطْعَم أيضاً بما يأتيها زوجها من طعام . والحق سبحانه وتعالى وحده هو الذى يُطعم كل الخلق ولا يُطعمه أحد . وحينما نسلسل كل عطاء فى الدنيا نجده يئول إلى الله تعالى .

إذن فلا تجعل وليّك فى الوسائط ، بل اجعله فى الغايات ؛ لأن الوسائط كلها راجعة فى الحقيقة إلى الله ، ويأتى الأمر من الحق لرسوله : « قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين » .

وهذا الأمر يجىء من الآمر الأعلى وهو الله . فالرسول لم يقل : إن هذا الأمر منه ؛ لأنه بشر مثلنا ، وسبحانه أبلغ رسولنا أن يكون هو أولَ من أسلم ، وأن ينال شرف الالتزام بمبادئ الإسلام ، والمثال على ذلك أن كل قائد مسلم هو القدوة لغيره، فها هو ذا طارق بن زياد الذى فتح الأندلس وهى مُلْك عريض ، ونزل من السفن وقال لجنوده : أنا لم آمركم أمراً أنا عنه بنجوة ـ أى أنا بعيد عنه ـ بل أنا معكم ، واعلموا أنى عندما يلتقى الجمعان حامل بنفسى على طاغية القوم « لزريق » فقاتلُهُ إن شاء الله . إنه لم يأمر بأمر لم يطبقه على نفسه ، بل طبقه على نفسه أولاً ، وآفة الأوامر أن كل إنسان يأمر أمراً ولا يطبقه على نفسه .

ومن قبل ذلك كان سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قد حكم نفسه أولاً فحكم الدنيا ، لقد جمع أقاربه أولاً وقال لهم: إنى سأشرع للمسلمين ، والذى

نفسى بيده من خالفنى منكم إلى شىء فيه لأجعلنه نكالا للمسلمين .

لقد أراد عمر - رضوان الله عليه - أن يُحكم أقاربه أولاً ضارباً المثل لولى أى أمر ليحكم أقاربه أولاً ، وأن يحذرهم أن يستغلوا اسمه ، ليستقيم الأمر بين المسلمين ؛ لأن الآفة أننا نجد الكثير من الناس تتكلم فى الإسلام ، ويريد كل إنسان من غيره أن يكونوا مسلمين بينما هو لا يطبق على نفسه مبادىء الإسلام . والحق سبحانه وتعالى أنزل لرسوله الأمر : « قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين » .

ومعنى « أسلم » أى ألقى زمام حياته إلى من يثق فى حكمته وعدله وهو الحق سبحانه وتعالى. وعندما كنا صغارا كنا نلقى زمام أمورنا لمن يتولى تربيتنا، ونرى الآباء والأمهات وهم يتعبون ويشقون ، نطيع أوامرهم إلى أن نصل إلى المراهقة فتنمو فينا الذاتية ، ونجدالمراهق وهو يرفض مثلا ارتداء البنطلون القصير ويرتدى البنطلون الطويل . ويختار ألوان ملابسه فى ضوء الأزياء الحديثة السائدة . وبعد ذلك يبدأ الشاب فى إدارة أموره بنفسه .

وآفة حياتنا أننا نهمل تربية الأبناء وهم صغار ، ثم نأتى لنقول : هيا لنربى الشباب متناسين أن الشباب مرحلة تمتلىء بطاقة يمكن أن يستغلها المجتمع ، والتربية السليمة زمانها الطفولة . « قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين » . وها هوذا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل عن رب العزة ، ويخبرنا أنه صلى الله عليه وسلم أول المسلمين ، وأنه تلقى الأمر بعدم الشرك بالله .

فإياكم أيها المسلمون أن تتعاظموا على مثل هذا الأمر ؛ لأن المصطفى المختار هو أول من أمره الحق بذلك ، وإياك أيها المسلم أن تجد غضاضة فى أن تتلقى أمراً من خالقك ؛ لأن الغضاضة قد تأتيك عندما يصدر إليك أمرٌ من مساوٍ لك ، لكن التوجيه الصادر من الحق لا بد أن يلزمك وترتضيه نَفْسُك ويطمئن به قلبك ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يجهد نفسه عندما يقابل حادثة ليس فيها حكم الله ، ويأتى الرسول صلى الله عليه وسلم بحكم من عنده ، فإن كان الحكم صحيحاً فإن الحق ينزل من القرآن ما يؤكده ، وإن احتاج الحكم إلى تعديل ، فإن الحق سبحانه ينزل التعديل اللازم للحكم ، ويبلغنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتعديل الحق

سبحانه وتعالى له ولا يجد غضاضة فى ذلك ، بل يبلغنا ببشاشة وصدق وأمانة أنه البلاغ عن الله .

والحق سبحانه وتعالى قد مَنّ على رسوله صلى الله عليه وسلم عندما لم يعدل فى الحكم احتراماً لاجتهاده صلى الله عليه وسلم فيقول سبحانه :

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة التوبة)

لقد أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعض المنافقين بالتخلف عن القتال قبل أن يتبين أمرهم ليعلم الصادق منهم ـ فى عذره ـ من الكاذب . وجاء العفو من الله لأن الرسول صلى الله عليه وسلم اجتهد ببشريته وأبلغنا الرسول بما أنزله الله .

ونحن فى حياتنا اليومية ـ ولله المثل الأعلى ـ نفتح كراسة الابن فنجد أن فيها شطباً بالقلم الأحمر ، فنسأل الابن : من الذى فعل ذلك ؟ فيقول الابن : صوب لى المدرس الأول هذا الموضوع . هو لم يتحدث عن تصويب المدرس ، ولكن عن تصويب من هو أعلى من المدرس . وهذا شرف للتلميذ . فما بالنا بالمصوِّب الأعلى سبحانه وتعالى . وهاهوذا الرسول صلى الله عليه وسلم يتلقى عن الله :

﴿ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾

إنه الرسول المصطفى والمجتبى والمعصوم يعلن أنه يخاف الله ؛ لأن قدر الله لا يملكه أحد ، ولا يغير قدر الله إلا الله سبحانه وتعالى ، وقد علق الخوف على شرط هو عصيان الله . لكن مادام لم يعص ربه فهو لا يخاف . ووجود « إن » يدل على تعليق على شرط ولا يتأتى ذلك من الرسول المعصوم لأنه لا يعصى الله .

وقد أراد الحق أن يبين لنا أن المعصوم لا يتأتى منه عصيان الله . لكن هذا القول